

٣ - المستقبل وأسرار الوجود

للأديب عبد الجليل السيد حسن

(تمة)

نحن والمستقبل :

قلنا إن الوجود مستقبل نسج وهو الماضي ، ومستقبل ينسج وهو الحاضر ، ومستقبل حينسج وهو « المستقبل » ونريد الآن أن ننظر في هذا التيار المتصل من الوجود : (١) هل هو منفصل بعضه عن بعض ، بمعنى أن الذى سبق منه لا تأثير له فيما يليه ؟ (٢) وإلى أين حد يتأثر وجودنا وتلون نظرنا للحياة بمقدار هذه الأوجه الثلاثة للوجود ؟

أولا : مشكلة تأثير السابق في اللاحق تشمل الحديث عن — : السبب والسبب . وعن : تأثير الماضي في الحاضر . أما عن الأمر الأول فقد نحددنا عنه . وأما عن الأمر الثانى : فنحن نعرف أن تكويننا الجسمى والمثل لم يتكون ولم يبن إلا في الماضي — أو المستقبل الذى نسج — بمعنى أن الماضي يدخل في بناء شخصية ما ، أو أن شخصيتنا بناء على تجارب الماضي قد سift . وهذه الشخصية هي التي تمل علينا اتجاهاتنا الحاضرة ، وهي التي تلزمنا أن نتجه هذا الاتجاه دون سواه ، وتتخذ هذه الخطوة وترفض تلك ، ونختار ما يلائم شخصيتنا ويناسب مزاجنا الذى خلقته التجارب الماضية . فالماضى غير منقطع الصلة بالحاضر ، وهو لا يؤثر فيه فقط ، بل هو الذى يصوغه وبشكله ويوجهه . ويمين الماضي على ذلك ، اللاشعور بأنواعه ، من اللاشعور الجنسى أو الجسمى الذى هو عبارة عن خصائص الجماعة الإنسانية ومميزات الجنس البشرى ومجموعة التجارب والتجربات التي اكتسبها أسلافنا والتي ورثناها من أجدادنا الأولين ، فهناك صفات عامة يشترك فيها النوع الإنسانى ، كالاستعداد للتثقيف والتعليم والتهذيب ، تنتقل من جيل إلى جيل — وكل جيل يضيف إليها قليلا من التطور — كأنه في أحماق اللاشعور . وليس هذا تأثير الماضي القريب في الحاضر ،

بل تأثير الماضي الصحيح الذى يمد بآلاف السنين في هذا الحاضر . وهناك اللاشعور الفردى الذى يختص بفرد دون آخر ، ويكون حياته بلون خاص . وأيضا فالذاكرة هي التي تجعلنا واعين لتجارب الماضي ، مستفيدين منها في الحاضر . وهذا إجمال لهذا الموضوع يحتاج إلى تفصيل كبير ، فالماضى مستقبل نسج وعلى غراره ينسج الحاضر

أما تأثيرنا أفرادا وجماعات بأوجه الوجود الثلاثة ، فهذا أمر من الواضح بمكان كبير . فالشاهد أن كل الناس يحيطون على تفكيرهم شئ معين فيوجههم وجهات مخصوصة ، ويجهلون ينتحون نواحي خاصة . فبعض الناس يثلب على طبعهم حب الغامرة والمخاطرة ، ترى حياتهم مصبوغة بهذه الصبغة ؛ وبعضهم يميلون إلى الحذر والانكماش على أنفسهم . فتصطبغ حياتهم بلون من الكحل والجمود والجبن . والسبب الذى فرق بين اتجاهات الناس وجعلهم يسلكون ما يسلكون هو انطباع شخصياتهم بطابع من أوجه الزمن الثلاثة ، فنجد بعض الناس يحنون دائما إلى الماضي ويميشون عليه ، وبعضهم لا يهتم إلا بالحاضر ولا ينظر إلى ما دونه . وبعضهم ينظر إلى المستقبل ويرى سمادته في طياته . وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم الناس إلى ثلاثة أعماط مختلفة ، لكل منها خصائصه ومميزاته . وهذا تخطيط أولى لهذه الأعماط :

١ - منطوره :

وهم الذين بوجهون اهتمامهم وانتباههم نحو الماضي ، يرقمون مهلهل ، ويخرفون سينه ، ويبالنون في حسناته ، ويكبرون من أمره ، ويلهبجون بذكره ، مقرونا بالثناء والإجلال . وطابعهم الحسرة على ما فات ، وإفراده وحده بالتعظيم ، والانتقاص من الحاضر ورميه بالنقص والانهك و « قلة الخير » أما الخير كل الخير والبركة كل البركة . ففي أيام « زمان » أيام المز والبلهنية ، أيام كانت الدنيا دنيا والناس ناسا . وهذا الطابع هو طابع الشرق الذى لا يجيده إلا قيسارته ؛ وسبب هذا الاتجاه الذى تمثله الحركات الترجمية والنظم المحافظة — ونحن نعلم ما لهذه النظم من خطر في شئون

كما يقرر أكثر علماء الاجتماع

٢ - اشهرانبرونه :

وهؤلاء انكبوا على الحاضر وحده ، فلم يلتفتوا إلى الوراء ، ولم ينظروا إلى الأمام ، بل هم أبناء وقتهم . وشارم ماضى فات والغيب أمر ، ولك الساعة التي أنت فيها فاطفاً نارشمواتهم مقصدم ، وأخذم من اللذة ولو على أى نحو وبأى سبيل أو فى نصيب ومن الألم أقل قدر غايتهم وأمنيتهم . وضيق الأذن وبلادة الحس وعدم تقدير الوجود صفاتهم

٣ - مشهوره :

وم هؤلاء الذين يسيطر عليهم الشعور بالمستقبل ، فهم يعلقون عليه آمالهم ، ويطلقون النظر إليه كأن فيه خلاصهم ونجاتهم ؛ أو على الأقل ينظرون إليه كمزاة لهم . وهؤلاء يحدون بأن الحياة فى التنوير والحركة ، والموت فى الثبات والجمود ؛ فهم يحبون المنامة والمخاطرة ويميلون إلى القامرة ، وهؤلاء هم الطامعون أصحاب المثل العليا وذوو القلوب الكبيرة والآمال العريضة والحلم العالية ، منهم العلماء والرواد والمخترعون والمكتشفون والمصلحون وأصحاب المبادئ والمذاهب الذين ينظرون دوماً إلى الأمام ، ويرون فى المستقبل الخلاص والنجاة . وهذا الاهتمام بالمستقبل ، والتعلق بالمثل العليا هو علة التقدم والذافع الوحيد إلى الرقى . فلو لم يكن لسلك إنسان أمل يجهد لتحقيقه ، وغاية ما يسمى إليها ، وهدف من الحياة يقصده وولد له العذاب فى سبيله ، لما وجدت الدنيا ، ولا وجد الناس فى الحياة طمعا ، ولا من سبب يقهرهم على أن يعيشوا . ولو وجدوا الحياة مترعة بالآلام ، وإلا فلماذا إذن يعيشون ؟ ولماذا لا يتخلصون من هذه الحياة المزجة القاسية المؤلمة بأنفسهم ؟ شئ واحد هو الذى يجعلهم لا يقدمون على ذلك : إنه الأمل على شقى أروانه من أدناها إلى أعلاها ؛ فبعضهم هم لفعة مائنة ووجه مليح ومبلس جميل ؛ وبعضهم هم هم الإنسانية يريد سعادتها . وبعضهم هم الذى يؤرقه أن يقشبت بمركبة الخلود إن لم يستطع أن يقفز فى قلبها . فالأمل وإن كان سرايا ، والأمان وإن كانت خدما ، تنفيذ الإنسانية وتدفع الناس إلى التضحية واحتمذاب الموت ،

الحياة السياسية والدينية والفكرة - أمور منها :

١ - حب الحياة الذى يدفع بالناس إلى الكسل والجمود ، وينأى بهم عن المخاطرة والمجازفة ؛ والطبيعة التى تجمل الناس بتشبهون بالحياة على أية صورة كانت من عذاب مهين وبؤس مرر ، فالناس لا يحبون أن يتخلصوا من الحياة بسمرة ، حتى ولو كانت مملوءة بالذل ، فهذا الحب للحياة على أية صورة ، هو الذى يدفع بالناس إلى مقت التنوير خوفاً على حياتهم الراهنة ، وهذا يؤدى إلى الحنين إلى الماضى

ب - الرغبة المستترة فى أعماق النفوس التى تدفع الإنسان إلى الفخر ، والبحث عن التقدير والإحساس بالاعتبار وأن له أهمية فى هذا الوجود . فالإنسان إذا فقد التقدير الذى يريده فى الحاضر فلا ضير عليه أن ينسب إلى نفسه أو إلى أجداده فى الماضى . والماضى قد مضى واندر ، فن السهل إدخال الزيادة والتقصان عليه ، ولفه فى إطار جميل معجب

ج - سنة الحياة التى تندرج بالإنسان من طفولة لاهية مرحة ، إلى شيخوخة طاجرة عابثة ، فالحياة تندرج من سهل لين خال من المثولية ، إلى جهنم مثقل بها . فالإنسان يجب أن يتطوى على نفسه ليحتر الأيام الخالية اللاهية

د - طبيعة الخيال الإنسانى الذى يقن ضمن ما يقن فى رسم صور الماضى زاهية يمس عليها رغبات الإنسان وآماله التى تنفصه فى عالم الحقيقة . والخيال من طبيعته التكبير والتمويل ، فالرجل الطيب قديس ، والملك العادل ابن الله ، والفارس الشجاع بطل منوار ومحارب قهار . يفتح المدن وحده والديار . وهكذا . وأمامك من ذلك آلاف الأمثلة ؛ فن هو عنتر بن شداد وأبو زيد الهلالى ؟ ألم يكونا بطلين شجاعين مدينين ؟ ولكن انظر ماذا جعلت منهما الأساطير فى أذهان النطون . وما حقيقة الأولياء والقديسين ؟ ألم يكونوا إلا بشرًا مثلنا ؟ ولكنهم بالنوا فى التقوى ، وأتوا قوة مهما تبدو خارقة معجزة . فهم لا تؤهلهم بحن للمكانة التى يحتلونها فى صدور مقدسيهم الذين يفسبون إليهم من الأعمال كل جليل . حتى أنهم قد يؤهلونهم ا وماهى حقيقة أكثر الآلهة القديمة ؟ ألم تكن إلا أرواح الأسلاف والأجداد عبدها أبناؤهم فى صورة آلهة ،

عليه السلام ، وإذا مات بدل غيره والذي لا بد أن يحكم يوما ما
وبعلا الدنيا عدلا بمد أن ملكت جورا

وفكرة الخلاص والمخلص ظهرت في حقب مختلفة تحت
أسماء مختلفة من اسماعيلية وقرامطية وسوسية ووهابية ، وحديثا
البايية والبهائية ومهدى السودان

ونجد كذلك أن الناس لا يقف تأثير المستقبل فيهم عند
الحد الذي يحطمهم ينتظرون الخلاص فيه في الدنيا ، بل تمداها
إلى الآخرة . فالمستقبل هو الذي جعل الفقراء يتعززون عن
اليوم الذي هم فيه . باليوم الآخر حيث يجزون على النصب
والشقاء في هذه الدنيا حنة عدن ونهر عند ملكك مقتدر ، إذ
أن الله ببدله ان يذيق الإنسان الشقاء مرتين : شقاء في الدنيا ،
وشقاء في الآخرة . ولا النعيم مرتين : نعيم في الدنيا ونعيم في
الآخرة . وهكذا ترى خطر هذا التأثير في الدين وبالتالي في
المجتمع

وقد رأينا كيف تتشكل حياة الناس أفراد وجماعات بأوجه
الزمن الثلاثة . وقد كنا نود أن نحدثك عن هذا التشكيل للحياة
في الدول الكبرى وكيف تدير سياستها على هذا الأساس ؟
فأمريكا مثلا تديرها سياسة الاهتمام بالحاضر والمستقبل ،
وبريطانيا يسيطر على سياستها التوازن بين الماضي (حزب
المحافظة) والمستقبل (الأحرار) فأما نحن فأرجو أن نكون
قد بدأنا نتجرد من تفاخر العاجز وتعزى الناقص بماضيه الرضاء
ولكن تترك ذلك إلى فرصة أخرى

عبد الجليل السير حسني

فالجندی يستشهد راضيا في سبيل وهم إسماعد وطنه ، والمؤمن في
سبيل إرضاء ربه . وعلى قدر الآمال والعمل على نيلها يكون حظ
الامة من الحياة والرفق

وهذا الصنف المستقبلي غير مقطوع الصلة بالماضي ، فإنه
كثيرا ما ينغم النظر في الماضي والحاضر وهذا التلفت الدائم إلى
الماضي هو الذي يوجهه يضم أمهه في المستقبل ويتطلع إليه على أنه
طريق الخلاص . فالرجل الذي يشمر بالخطيئة الماضية يظال بدمان
أسفا ، ولكنه يرجو النجاة والخلاص في المستقبل . والإنسان
الذي مسه الضر ولفنه الفشل يأمل الفلاح والتوفيق في المستقبل ،
وتكاد تكون فكرة التأرجح بين الماضي البعيد والقريب ،
والمستقبل البعيد والقريب كذلك ، هي التي أوجدت الأديان عامة
وخلقتها وجعلت لها مكانا في الوجود ، أو على الأقل هي العمدة
الأولى التي ترتكز عليها الأديان . ولولاها لما كان هناك شيء
اسمه الدين ؟ فنعن إذا أخذنا ننظر في نشأة المسيحية مثلا :
وجدنا السبب في وجودها وقت توتر ، جعل أنظار الناس تتطلع
إلى المستقبل وهي بائسة حائرة متلهفة مترقبة تبحث عن مخلص
يخرج من بينهم ، فيفتح لهم باب الرحمة في السماء ، وباب النعمة
في الأرض

... يفتح باب الرحمة بأن يظهرهم من أدناسهم وأرجاسهم
برسالته النبوية . ويفتح باب النعمة بأن ينشر الأمن في ربوع
أرض يهوذا ، وعلى أوية بني إسرائيل ، ويخلصهم من هذا
الغذاب الروماني التلاحق . وحين مولد المسيح عليه السلام
كانت القلوب قد بلغت الحناجر ، ولم يعد في القوس مزع . وترقب
اليهود ظهور المخلص على أحر من الجمر ، واعتقدوا أنهم لن يموتوا
حتى يروه يخلصهم وينشر الأمن على أرض يهوذا . وكثرت
النبوءات عن ظهوره ، وبشر به الشيخ المهيب الذي يعمد الناس
في نهر الأردن وهو يوحنا المعمدان . وما أن ظهر عيسى حتى تلتفت
به الأنظار وكان ما كان من أمره . وكذلك وجدت فكرة المخلص
في الإسلام ، ولبست دوراها ما في التاريخ والتفكير الإسلامي .
وقد ظهرت تحت اسم المهدي والإمام القاسم الذي يملعه جبريل

ظهر المجلد الثالث

من كتاب

وحي الرسالة

للأستاذ أحمد حسن الزيات بك